إيران ١٩٥٣
جعلها آمنة لملك الملوك

«وهكذا نتخلص من ذلك المعتوه مصدق»، بهذه العبارة خاطب جون فوستر دالس John Foster Dulles مجموعة من كبار صانعي السياسة في واشنطن في أحد أيام شهر حزيران (يونيو) ١٩٥٣[١]. كان وزير الخارجية الأمريكي يمسك بيده خطة عملية للإطاحة برئيس وزراء إيران من إعداد كرميت (كيم) روزفلت Kermit (Kim) Roosevelt أحد موظفي وكالة المخابرات المركزية. لم يكن في الغرفة إلا فيما ندر أي نقاش بين كبار أصحاب السلطة، ولم تكن هناك إلا فيما ندر أسئلة استطلاعية، ولم يقم أحد بإثارة أية مسائل قانونية أو أخلاقية.

كتب روزفلت لاحقاً: «هذا قرار خطير كان علينا اتخاذه، وهو قرار ينطوي على مجازفة ضخمة. وهو بالتأكيد يستحق دراسة وافية، والنظر فيه عن كثب، في مكان ما على أعلى المستويات. ولم يسبق أن نال مثل هذا القدر من التفكير في هذا الاجتماع. والحقيقة انني كنت متيقناً من الناحية الأخلاقية أن نحو نصف الحاضرين في الاجتماع كانوا يودون معارضة المشروع لو أنهم شعروا بحرية المعارضة أو امتلكوا الشجاعة للكلام»[٢].

كان روزفلت، حفيد ثيودور Theodore وأحد أبناء عم فرانكلين Franklin، يعبّر عن الدهشة أكثر مما يعبر عن خيبة الأمل بسبب عدم معالجة التهاون في صنع السياسة الخارجية الأمريكية.

كانت المبادرة لعزل مصدق قد جاءت أصلاً من البريطانيين، لأن الزعيم الإيراني المتقدم في السن اتخذ دور الطليعة في التحرك البرلماني لتأميم شركة النفط الأنغلو - إيرانية التي تملكها بريطانيا، والتي كانت شركة النفط الوحيدة

العاملة في إيران. في شهر آذار (مارس) ١٩٥١ جرى إقرار مشروع قانون التأميم، وفي نهاية شهر نيسان (إبريل) انتخب مصدق رئيساً للوزراء بأغلبية كبيرة من أعضاء البرلمان. في الأول من أيار (مايو) وضع التأميم موضع التنفيذ. وقد صرح مصدق بأن الشعب الإيراني «يفتح كنزاً مرصوداً يربض فوقه تنين» [٣].

وكما توقع رئيس الوزراء، لم يتقبل البريطانيون التأميم تقبلاً لطيفاً، مع أنه نال تأييد البرلمان الإيراني بإجماع الأصوات وتأييد غالبية طاغية من الشعب الإيراني لأسباب تعود إلى العدالة الاقتصادية والكبرياء الوطنية. وقد حاولت حكومة مصدق أن تفعل كل الأمور الصحيحة لتهدئة خواطر البريطانيين: عرضت أن تخصص ٢٥ بالمئة من الأرباح الصافية لعملية النفط كتعويض، وضمنت سلامة المستخدمين البريطانيين ووظائفهم، وأبدت استعدادها لبيع النفط الإيراني بدون أن يختل نظام الرقابة المحكم الأثير إلى قلوب عمالقة النفط الدوليين. ولكن البريطانيين لم يرضوا بشيء من ذلك. كانوا يريدون استعادة شركة النفط التي يملكونها، وكانوا يريدون رأس مصدق، فالخادم لا يهين سيده وينجو من العقاب.

قام الأسطول البريطاني باستعراض قوة عسكرية تبعه حصار اقتصادي دولي قاس ومقاطعة، وتجميد الممتلكات الإيرانية، الأمر الذي أدى إلى ركود تام في صادرات النفط الإيراني وتجارة إيران الخارجية، وأوقع البلد الذي كان يعاني أصلاً من الفقر في حالة تقرب من الاملاق، وجعلت دفع أي تعويض أمراً مستحيلاً. مع ذلك، وبعد وقت طويل من تحرك البريطانيين لطرد مصدق، طالبوا بتعويض ليس فقط عن الممتلكات المادية لشركة النفط الأنكلو-إيرانية، بل طالبوا أيضاً بقيمة مشروعهم لتطوير حقول النفط، وهو طلب تستحيل تلبيته، كما أنه، في نظر الوطنيين الإيرانيين، شيء عوضت عنه أضعافاً مضاعفة الأرباح البريطانية الضخمة على مدى عقود من السنين.

ما كان لمحاولة بريطانيا لخنق إيران اقتصادياً أن تبرح أرضها بدون تعاون نشط ودعم من جانب إدارة ترومان وإدارة ايزنهاور وشركات النفط الأمريكية. وفي الوقت

ذاته، كانت الحجة التي قدمتها إلى بريطانيا هي أن سقوط مصدق قد يفتح الباب أمام الكلام المألوف عن استيلاء الشيوعيين على الحكم [٤]. ولكن بعد طرد البريطانيين من إيران، لم يكن أمامهم بديل سوى التوجه إلى الولايات المتحدة طلباً للمساعدة في إسقاط مصدق. في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٥٢ اتصلت حكومة تشرشل بروزفلت، الذي كان كأمر واقع رئيس قسم الشرق الأوسط في وكالة المخابرات المركزية، الذي أبلغ البريطانيين أنه يشعر «بعدم وجود فرصة للحصول على موافقة من إدارة ترومان واتشيسون التي كانت تقترب من نهاية عهدها، غير أن موقف إدارة الجمهوريين الجديدة قد يكون مختلفاً تماماً» [٥].

بالتأكيد كان جون فوستر دالس مختلفاً. إن هذا المعادي للشيوعية والمؤمن بالوحي رأى في مصدق صورة تختزل كل ما يكرهه دالس في العالم الثالث: الحياد التام في الحرب الباردة، التسامح مع الشيوعيين، عدم احترام الاستثمار الحر كما يظهر في تأميم النفط. (من دواعي السخرية أن بريطانيا العظمى كانت في السنين السابقة قد أممت العديد من صناعاتها الأساسية، وكانت الحكومة هي المالك الرئيسي لشركة النفط الأنكلو-إيرانية).

بالنسبة لأمثال جون فوستر دالس كان الدكتور محمد مصدق غريب الأطوار، رجلاً مجنوناً. وعندما رأى وزير الخارجية الأمريكي أن إيران كانت دولة فاحشة الثراء في الذهب الأسود، وأن لها حدوداً مع الاتحاد السوفييتي تزيد عن ١٠٠٠ ميل، لذلك فإنه ابتلي عن حق بعدم اتخاذ قرار بشأن ما إذا كان رئيس الوزراء الإيراني يجب أخيراً أن يعتزل الحياة العامة.

ووفقاً لتطور الأمور، فإن إسقاط مصدق في شهر آب (أغسطس) عام ١٩٥٣ كان عملية أمريكية أكثر مما كان عملية بريطانية. وبعد مرور ستة وعشرين عاماً أقدم كرمت روزفلت على خطوة غير عادية بتأليفه كتاباً عن كيفية تنفيذه هو ووكالة المخابرات المركزية العملية. لقد وضع عنواناً لكتابه هو (انقلاب معاكس) وذلك لكي يعزز في داخل الولايات المتحدة فكرة أن الانقلاب الذي نفذته وكالة المخابرات

المركزية كان لغاية واحدة هي منع استيلاء الحزب الشيوعي الإيراني (حزب توده) على السلطة بدعم وثيق من الاتحاد السوفييتي وكانت حجة روزفلت بذلك هي أن مصدق كان لابد من عزله لمنع استيلاء الشيوعيين على الحكم بينما كانت إدارة ترومان تشعر بضرورة بقاء مصدق في السلطة لمنع استيلاء الشيوعيين على الحكم.

ليس من الصواب القول إن روزفلت يقدم دليلاً ضعيفاً لدعم مقولته عن الخطر الشيوعي. والأكثر دقة هو القول أنه لا يقدم أي دليل البتة. بدلاً من ذلك، يتعرض القارىء إلى مجرد تأكيدات لهذه المقولة تتكرر مرة بعد أخرى في الكتاب، وذلك على ما يبدو بدافع الاعتقاد أن التكرار سيقنع حتى الناس الأشد تشككاً. وهكذا فإننا نواجه في الكتاب تبدلات في الموضوع على النحو التالي:

«التهديد السوفييتي كان في الواقع حقيقياً، وخطراً وشيكاً»... إن مصدق «كان قد شكل تحالفاً» مع الاتحاد السوفييتي لعزل الشاه.. «التهديد الجلي لاستيلاء الروس على إيران».. «التحالف بين مصدق وحزب تودة الذي يسيطر عليه الروس كان يتخذ شكلاً تهديدياً».. «اعتماد مصدق المتزايد على الاتحاد السوفييتي».. «يد حزب توده، ومن ورائها الروس، تظهر بصورة أوضح يوماً بعد يوم».. «مساندة الروس لحزب توده ومساندة حزب توده لمصدق أصبحتا أكثر وضوحاً».. كان الاتحاد السوفييتي «أكثر نشاطاً في إيران. وكان إشرافه على قيادة حزب توده يزداد قوة طوال الوقت. وقد مارس هذا الإشراف في معظم الوقت وأمام أعيننا وبتظاهر متعمد».. [٦]. ولكن لا شيء من هذا النشاط التخريبي والتهديدي كان، كما يبدو، مكشوفاً وجلياً أو فيه ما يكفي من التظاهر بحيث يوفر لروزفلت مثالاً واحداً يمكن نقله إلى القارىء المتلهف للمعرفة).

في واقع الأمر، مع أن حزب توده كان إلى حد ما يتبع بإخلاص خط موسكو المتعرج تجاه إيران، فقد كانت علاقة الحزب مع مصدق أكثر تعقيداً بكثير مما أظهره روزفلت وغيره من رواة أحداث الحرب الباردة. كان حزب توده يشعر شعوراً شديد الإبهام إزاء رئيس الوزراء الثري والذي يملك أراضي واسعة وكان مع ذلك

صامداً في وجه الإمبريالية. لقد وصف دين أتشيسون، وزير خارجية ترومان، مصدق بأنه «فارسي هو أساساً غني ورجعي وإقطاعي العقلية» [٧]. أي أنه يصعب أن يكون حليفاً مثالياً لحزب شيوعي.

في ذلك الحين ساند حزب توده سياسات مصدق. ولكنه في أكثر الأحيان كان يهاجمها مهاجمة شديدة، وفي إحدى الحالات، وكان ذلك بتاريخ ١٥ تموز (يوليو) ١٩٥١ قمع مصدق قمعاً وحشياً مظاهرة كان يتبناها حزب توده ونتجت عن ذلك وفاة ١٠٠ شخص وإصابة ٥٠٠ شخص بجراح. علاوة على ذلك، قاد الزعيم الإيراني حملة ناجحة ضد الاحتلال السوفييتي الكامن في شمال إيران منذ الحرب العالمية، وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٧ قاد البرلمان في رفضه الاقتراح الحكومي لإنشاء شركة نفط إيرانية – سوفييتية مشتركة لاستثمار نفط شمال إيران[٨].

ما الذي في الحقيقة يمكن أن يكسبه من التخلي عن أية سلطة من سلطاته لحزب توده و/أو الاتحاد السوفييتي؟ إن الفكرة القائلة بأن الروس كانوا راغبين في أن يتولى حزب توده السلطة هي ليست أكثر من تكهن. بل كان هناك الكثير من الدليل، أو القليل، الذي يمكن معه الاستنتاج بأن الروس، مرة أخرى، كانوا أكثر اهتماماً بعلاقتهم مع الحكومات الغربية، من اهتمامهم بمصير حزب شيوعي محلي في بلد يقع خارج الكتلة الاشتراكية في شرق أوروبا.

لقد جاء في تقرير استخباري صادر عن وزارة الخارجية الأمريكية بتاريخ ٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣، في أواخر أيام إدارة ترومان، أن مصدق لم يسعَ لعقد أي تحالف مع حزب توده، وأن «المعارضة الرئيسية للجبهة الوطنية (ائتلاف حكومة مصدق) ناشئة عن المصالح الثابتة من جهة وحزب توده من جهة أخرى»[٩].

كان حزب توده يعتبر حزباً غير شرعي في عام ١٩٤٩، ولم يرفع مصدق هذا الحظر عن الحزب، مع أنه سمح للحزب بأن ينشط علناً، على الأقل إلى حد ما نظراً لقناعاته الديموقراطية، وعين بعض المتعاطفين مع حزب توده في مناصب حكومية.

كان العديد من أهداف حزب توده متوازياً مع الأهداف التي تتبناها الجبهة الوطنية، حسب قول تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية، ولكن «أي تحرك مكشوف من جانب حزب توده لتولي السلطة.. كان من المحتمل أن يوحد المستقلين وغير الشيوعيين من مختلف الاتجاهات السياسية ويؤدي.. إلى جهود قوية لتدمير حزب توده بالقوة» (١٠).

كانت الجبهة الوطنية ذاتها ائتلافاً بين عناصر سياسية شديدة التنوع وعناصر دينية من ضمنها أعداء الشيوعية من الجناح اليميني، يربط بينهم احترامهم لأخلاق مصدق ونزاهته، وكذلك المشاعر الوطنية ولاسيما من حيث تأميم النفط.

عندما سئل كرميت روزفلت في عام ١٩٧٩ عن هذا التقرير الصادر عن وزارة الخارجية، أجاب: «لا أعرف ماذا أقول عن ذلك.. كان لوي هندرسون Loy Hender-son (السفير الأمريكي في إيران عام ١٩٥٣) يرى أن هناك خطراً جدياً بأن يقدم مصدق، فعلياً، على وضع إيران تحت السيطرة السوفييتية» (١١). ومع أن روزفلت كان القوة المحركة الرئيسية وراء الانقلاب، فإنه الآن كان يمر في مرحلة الاختبار وأصبح رجلاً تملكته، كما سنرى في الفصل الخاص بالشرق الأوسط، نزعة الكلام التخويفي عن «الاستيلاءات الشيوعية».

لا يملك المرء إلا أن يتساءل كيف تعامل روزفلت أو أي شخص آخر، مع بيان جون فوستر دالس أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ الأمريكي في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٣، عندما كانت عملية طرد مصدق في طور التنفيذ. قالت الصحف: إن وزير الخارجية قال في شهادته أمام اللجنة «إنه لم تكن هناك بيّنة هامة تشير إلى أن إيران كانت تتعاون مع روسيا. مضيفاً أن المعارضة الإسلامية للشيوعية كانت بوجه عام هي السائدة، ولو أن الحكومة الإيرانية بدت أحياناً تعتمد على تأييد من حزب توده، وهو حزب ذو ميول شيوعية» (١٢).

جاء في تقرير وزارة الخارجية الأمريكية الاستخباري أن شاه إيران الفتي تدنى وضعه إلى ما يزيد قليلاً على دور سلبي، وذلك على يد مصدق والنهج السياسي الإيراني. لقد تضاءلت سلطته إلى حد «عجزه عن القيام بعمل مستقل». كان مصدق يضغط للحصول على السيطرة على القوات المسلحة وليكون له إشراف أكبر على نفقات البلاط الشاهنشاهي، بينما كان الشاه - «ملك الملوك» - عديم الخبرة وغير الحازم في قراراته متردداً في الإقدام على معارضة مكشوفة لرئيس الوزراء نظراً لشعبية رئيس الوزراء.

إن تسلسل الأحداث التي فجرها روزفلت وكانت خاتمتها تنازل الشاه عن العرش بدا بسيطاً عند استعادته، بل بدا ساذجاً، ولم يكن معتمداً على الحظ. كانت الخطوة الأولى هي طمأنة الشاه من قبل ايزنهاور وتشرشل إلى أنهما معه في كفاحه ضد مصدق لامتلاك السلطة وأنهما مستعدان لتزويده بما يحتاجه من الدعم العسكري والسياسي. والحقيقة هي أن روزفلت لم يكن يعلم ما هو شعور ايزنهاور، أو أنه كان يعمل ما هو شعوره إزاء العملية، بل إنه وصل إلى حد اختلاق رسالة من الرئيس الأمريكي إلى الشاه يعبر فيها عن تشجيعه [١٣].

وفي الوقت ذاته جرى إقناع الشاه بإصدار مراسيم ملكية تقضي بعزل مصدق من منصبه كرئيس وزراء ليحل محله شخص يدعى فضل الله زاهدي، وهو جنرال سبق أن سجنه البريطانيون خلال الحرب بسبب تعاونه مع النازيين [١٤] وفي ساعة متأخرة من ليل ١٤/١٥ آب (اوغسطس) سلم مبعوث من قبل الشاه المرسوم الملكي إلى منزل مصدق، الذي كان يحرسه الجنود. ولم يكن أمراً مفاجئاً أن المبعوث استقبل باستخفاف شديد ولم يسمح له بمقابلة رئيس الوزراء. بدلاً من ذلك، كان عليه أن يترك المرسوم عند خادم وقّع على إيصال باستلام قطعة الورق التي تنص على عزل سيده من السلطة. وليس أمراً مفاجئاً أيضاً أن مصدق لم يتخلَّ عن منصبه. إن رئيس الوزراء، الذي ظل متمسكاً بموقفه القائل إن البرلمان وحده يستطيع عزله، ألقى في صباح اليوم التالي خطاباً عبر الإذاعة قال فيه ان الشاه

حاول، بتشجيع من «عناصر أجنبية» أن يقوم بانقلاب، وأعلن مصدق أنه لذلك مضطر إلى ممارسة كامل السلطة بنفسه، وندد بالجنرال زاهدي واصفاً إياه بأنه خائن، وسعى لإلقاء القبض عليه، ولكن هذا الجنرال خبأه فريق عمل روزفلت.

أما الشاه، الذي خشي أن يكون خسر كل شيء، فقد هرب مع الملكة إلى روما عبر بغداد دون أن يتمكن حتى من إعداد حقيبة ملابس. لم يرتدع روزفلت، بل سارع بإصدار تعليماته بإعداد نسخ مصورة عن المرسوم الملكي لتوزيعها على الجمهور، وأوفد اثنين من العملاء الإيرانيين إلى كبار القادة العسكريين طالباً مساندتهم. يبدو أن هذا الأمر الحاسم كان متروكاً إلى الدقيقة الأخيرة، وكأنها إعادة تفكير في الأمر. والحقيقة أن أحد هذين الإيرانيين كان قد تم تجنيده لهذه الغاية في اليوم ذاته، وهو فقط الذي أفلح في الحصول على التزام بالدعم العسكري من ضابط إيراني برتبة كولونيل كانت تحت امرته دبابات وسيارات مصفحة [١٥].

اعتباراً من ١٦ آب (اوغسطس) شهدت العاصمة الإيرانية طهران مظاهرة جماهيرية نظمتها الجبهة الوطنية تأييداً لمصدق، وتنديداً بالشاه والولايات المتحدة. كان وصف روزفلت للمتظاهرين ببساطة أنهم «من حزب توده بتشجيع قوي من روسيا»، وهو مرة أخرى أخفق في تقديم أي دليل يدعم تأكيده هذا. أما جريدة «نيويورك تايمز» فقد وصفتهم بأنهم «مناصرون لحزب توده ومتطرفون وطنيون»، وصفة المتطرفين الوطنيين كان بالإمكان إطلاقها على أفراد يشكلون حلقة واسعة من الاتجاهات السياسية [١٦].

كان بين المتظاهرين أيضاً عدد من الأفراد العاملين لحساب وكالة المخابرات المركزية. ووفقاً لأقوال (ريتشارد كوتام Richard Cottam) وهو أكاديمي ومؤلف قيل إنه كان يعمل لحساب الوكالة في طهران آنذاك، إن هؤلاء العملاء أرسلوا «إلى الشوارع للتظاهر وكأنهم من حزب توده. لم يكونوا مجرد محرضين على التظاهر، بل كانوا جنوداً من الصاعقة تصرفوا وكأنهم من حزب توده وأخذوا يرشقون

المساجد ورجال الدين بالحجارة» وكان القصد وصم حزب توده، وبصورة ضمنية مصدق، بالعداء للدين [١٧].

خلال المظاهرات نادى حزب توده بمطلبه المألوف، أي إقامة جمهورية ديموقراطية، وناشد أنصار الحزب مصدق أن يشكل جبهة متحدة وأن يزوّدهم بالأسلحة للدفاع عن البلد ضد الانقلاب، ولكن رئيس الوزراء رفض طلبهم [١٨]. بدلاً من ذلك، أصدر في الثامن عشر من آب (أغسطس) أمراً إلى الشرطة والجيش لوضع حد لمظاهرات حزب توده، وقد نفذت الشرطة والجيش هذا الأمر بقسوة شديدة، وبحسب رواية روزفلت والسفير هندرسون للأحداث، فإن مصدق أقدم على هذه الخطوة نتيجة لاجتماع عقده مع هندرسون اشتكى خلاله السفير الأمريكي من المضايقات البالغة التي يتعرض لها المواطنون الأمريكيون من جانب الإيرانيين. أبقى كلا هذين الأمريكيين الغموض يلف مدى ما هو حقيقي من هذه المضايقات وما هو مختلق من قبلهما لهذه المناسبة. على أي حال، قال هندرسون لمصدق إنه ما لم تتوقف هذه المضايقات سيكون مضطراً ليأمر جميع الأمريكيين بمغادرة إيران في الحال. يقول هندرسون: إن مصدق توسل إليه ألا يفعل ذلك لأن رحيل الأمريكيين سيظهر حكومته وكأنها عاجزة عن السيطرة على الوضع في البلد، مع أن رئيس الوزراء الإيراني اتهم، في الوقت ذاته، وكالة المخابرات المركزية بأنها كانت وراء إصدار المراسيم الملكية [١٩]. (في ذلك الحين كانت الجريدة الناطقة باسم حزب توده تدعو إلى طرد الدبلوماسيين الأمريكيين «الذين يتدخلون في شؤون إيران» [٢٠].

مهما يكن دافع مصدق، فقد كان تصرفه في تناقض حاد مع الفكرة القائلة، إنه كان متحالفاً مع حزب توده أو إن الحزب كان في وضع يسمح له بأن يقبض على زمام السلطة. والحقيقة هي أن حزب توده لم يعد إلى الشوارع مرة ثانية.

في اليوم التالي، ١٩ آب (اوغسطس)، قام عملاء روزفلت الإيرانيون باستعراض في طهران. وبمبلغ من المال يناهز مليون دولار وضع في الصندوق الحديدي في السفارة الأمريكية. لم يجد «المنظمون المحترفون الأكفاء كما كان يسميهم روزفلت،

أية صعوبة في شراء جماعة من الغوغاء، ربما باستعمال جزء يسير من هذا المبلغ. (الروايات المختلفة عن دور وكالة المخابرات المركزية في إيران قدرت ما أنفقته الوكالة للإطاحة بمصدق بمبلغ يتراوح بين ١٠,٠٠٠ و١٩ مليون دولار. المبالغ الأكبر تستند إلى تقارير مفادها أن وكالة المخابرات المركزية انخرطت في وضع رشاوى كبيرة إلى أعضاء في البرلمان وإلى إيرانيين آخرين ذوي نفوذ لكسب تأييدهم ضد رئيس الوزراء).

وسرعان ما بدأ الناس يشاهدون صفوفاً من الناس تخرج من البازار القديم، وفي مقدمتهم لاعبون من السيرك ورياضيون لجذب انتباه الجمهور. كان المشاركون في المسيرة يلوحون بأعلام ويهتفون «عاش الشاه». وعلى طرفي المسيرة كان ثمة رجال يوزعون عملة إيرانية مزدانة بصورة الشاه. وخلال تقدم المتظاهرين كانوا يجمعون أتباعاً لهم، أشخاصاً ينضمون إلى المسيرة ويشاركون في الهتافات، وبدون شك لعدد لا يحصى من الأسباب السياسية والشخصية. لقد مال ميزان الحالة النفسية ضد مصدق.

وطوال الطريق، كان بعض المشاركين في المسيرة ينفصلون عنها لمهاجمة مكاتب الصحف والأحزاب السياسية الموالية لمصدق، من ضمنها حزب توده والمكاتب الحكومية. في هذا الوقت صدح صوت عبر الإذاعة معلناً أن «تعليمات الشاه بعزل مصدق قد نفذت». وأن رئيس الوزراء الجديد، فضل الله زاهدي تولى منصبه الآن، وأن صاحب الجلالة الامبراطورية في طريق عودته إلى الوطن!».

كانت هذه كذبة، أو «ما قبل الحقيقة» على حد قول روزفلت. عندها فقط ذهب روزفلت لإحضار زاهدي من مخبئه. في طريقه إليه صادف أنه التقى قائد سلاح الجو الذي كان بين جموع المتظاهرين. طلب روزفلت من هذا الضابط أن يستولي على دبابة لنقل زاهدي بها إلى منزل مصدق حسب الأصول [٢١].

كان بودّ كرميت روزفلت أن يصدق القارىء أن كل الأمور قد نجحت عند هذا الحد ولم يبق سوى إطلاق الهتافات وفتح زجاجات الشمبانيا: كان مصدق قد هرب،

وتولى زاهدي السلطة، وتم إبلاغ الشاه بضرورة العودة - وهذا ما يمثل نصراً دراماتيكياً مفرحاً وسلمياً لإرادة الشعب. ثمة أمر لا يمكن تفسيره، أن روزفلت أغفل بالمرة أن يذكر أن معركة دامت تسع ساعات كانت تحتدم في شوارع طهران وأمام منزل مصدق في ذلك اليوم، بين جنود موالين لمصدق من جهة وآخرين مؤيدين لزاهدي والشاه من جهة أخرى. وذكرت الأخبار أن نحو ٣٠٠ شخص قتلوا ومئات آخرين جرحوا قبل أن يستسلم المدافعون عن مصدق [٢٢].

كذلك فإن روزفلت لم يأتِ على ذكر أي إسهام للبريطانيين في كامل العملية، الأمر الذي أزعج كثيراً العاملين في المخابرات البريطانية (m16)، نظيره وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، التي ادعت أنها وموظفي شركة النفط الانكلو-إيرانية ورجال أعمال محليين وإيرانيين آخرين لعبوا دوراً في الأحداث. ولكنهم التزموا الصمت المطبق عن حقيقة ذلك الدور [٢٣].

ادعت البعثة العسكرية الأمريكية في إيران أنه كان لها دور في العملية، وفقاً لشهادة أدلى بها الميجور جنرال جورج ستيوارث في وقت لاحق أمام الكونغرس:

«الآن، عندما حدثت الأزمة وكان الأمر على وشك الإنهيار، خرقنا معاييرنا المعتادة، وكان بين الأمور الأخرى التي فعلناها أننا زودنا الجيش فوراً وعلى أساس الطوارىء، بأحذية، وبزات عسكرية، ومولدات كهرباء، ومواد طبية أتاحت، بل أوجدت مناخاً يستطيعون فيه مساندة الشاه.. إن البنادق التي كانت في أيديهم، والشاحنات التي نقلتهم، والسيارات المصفحة التي قادوها في الشوارع، والأجهزة اللاسلكية التي سمحت لهم بالتحكم في الوضع، هذه كلها قدمها برنامج المساعدة العسكرية الدفاعية»[٢٤].

لعل الجزء الأخير من كلام الجنرال ينطبق على الجانب الآخر أيضاً.

كتب كينيت لاف Kennet Love مراسل جريدة «نيويورك تايمز» الذي كان في طهران خلال تلك الأيام الحاسمة من شهر آب (اوغسطس): «من الأمور التي يقبلها

العقل أن حزب توده كان بإمكانه أن يقلب ميزان الأمور في ذلك الحين ضد أنصار الملكية، ولكنه لسبب ما بقي مبتعداً كلياً عن النزاع.. تفسيري الخاص هو أن السفارة السوفييتية ضبطت تحرك حزب توده لأن الكرملين، في السنة الأولى ما بعد ستالين، لم يكن مستعداً لتحمل العواقب التي كان من المحتمل أن تنجم عن إقامة نظام في طهران خاضع لإشراف شيوعي».

إن وجهات نظر لافت، التي احتوتها ورقة كتبها في عام ١٩٦٠ ربما استمدت الإلهام من معلومات تلقاها من وكالة المخابرات المركزية. إنه يعترف بأنه كان على صلة وثيقة بالوكالة في طهران بل إنه ساعدها في عمليتها [٢٥].

في وقت سابق من ذلك العام نوهت جريدة «نيويورك تايمز ««بأن الرأي السائد بين مراقبين متباينين في طهران» هو أن «مصدق هو السياسي الأكثر شعبية في البلد». خلال مدة تربو على أربعين عاماً من الحياة العامة «اكتسب مصدق سمعة الوطني النزيه» [٢٦].

في شهر تموز (يوليو) كان مدير الشؤون الإيرانية في وزارة الخارجية الأمريكية قد أدلى بشهادة قال فيها «ان مصدق يتمتع بسيطرة هائلة على جماهير الشعب إلى حد أنه يصعب عليه» [٢٧].

بعد ذلك ببضعة أيام، امتلأت شوارع طهران بما لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ شخص خرجوا للتعبير عن مشاعر العداء للولايات المتحدة وللشاه. ومع أن حزب توده كان راعي هذه المظاهرة، فإن المشاركين فيها تجاوزوا أي عدد تقديري لأعضاء الحزب [٢٨].

ولكن الشعبية والجماهير، من النوع غير المسلح، لم تكن لها أهمية تذكر، لأن ما شهدته طهران في التحليل النهائي هو اختبار قوة عسكرية بين جانبين، أحدهما مؤلف من جنود يطيعون أوامر حفنة من الضباط، بعضهم يراهن في سيرته الوظيفية وطموحاته على اختيار الجانب الرابح، وبعضهم الآخر كان أكثر التزاماً من الناحية الأيدويولوجية. لقد وصفت جريدة «نيويورك تايمز» التراجع المفاجىء في

حظوظ نجاح مصدق أنها «ليست سوى تمرد.. ضد الضباط الموالين لمصدق» من قبل «الضباط الأدنى رتبة» الذين كانوا يبجلون الشاه، والذين سبق لهم أن أخمدوا بوحشية مظاهرات اليوم السابق، ورفضوا أن يفعلوا الشيء نفسه في ١٩ آب (أغسطس) وبدلاً من ذلك انقلبوا على ضباطهم [٢٩].

ليست واضحة الصلة المسبقة بين روزفلت وعملائه من جهة وأي من الضباط الموالين للشاه من جهة أخرى. في مقابلة صحفية أجريت مع روزفلت في نفس الوقت الذي أنهى فيه تقريباً تأليف كتابه، قال روزفلت إن عدداً من الضباط الموالين للشاه سمح لهم باللجوء إلى مجمّع وكالة المخابرات المركزية الملاصق للسفارة الأمريكية في وقت هروب الشاه إلى روما[٣٠]. ولكن بما أن روزفلت لم يأتِ في كتابه بكلمة واحدة على ذكر هذا الحدث الهام والمثير للاهتمام، فلابد من مقاربة تأكيد آخر من تأكيداته بحذر.

في أي حال، ربما كانت مظاهرة ١٩ آب (اوغسطس) التي نظمها الفريق المساعد لروزفلت كانت مجرد التشجيع والشرارة التي كان ينتظرها هؤلاء الضباط. وحتى إذا صح ذلك فإنه يظهر أكثر إلى أي مدى ترك روزفلت الأمور رهن الفرص.

في ضوء سائر البيانات المثيرة للتساؤل والمتناقضة والمخادعة الصادرة أحياناً عن جون فوستر دالس، وكرميت روزفلت، ولوي هندرسون، ومسؤولين أمريكيين آخرين، ما هي الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من دافع أمريكا إلى الإطاحة بمصدق؟ إن عواقب الانقلاب قد توفر أفضل دليل.

على مدى الأعوام الخمسة والعشرين اللاحقة، صمد شاه إيران في موقفه الحليف الأوثق قرباً من الولايات المتحدة في العالم الثالث، إلى درجة أن ذلك كان من شأنه أن يصدم مصدق ذا الموقف المستقل والمحايد. لقد وضع الشاه عملياً بلاده تحت تصرف هيئات عسكرية واستخبارية أميركية لكي تستخدم كسلاح في الحرب الباردة، ونافذة وباب إلى الاتحاد السوفييتي. فقد أقيمت محطات استماع الكتروني

ورادار بالقرب من الحدود السوفييتية، واستخدمت الطائرات الأمريكية إيران قاعدة للقيام بأعمال مراقبة جوية فوق الاتحاد السوفييتي، كما تم تسريب جواسيس عبر الحدود، وملأت الأرض الإيرانية منشآت عسكرية أمريكية. كانت النظرة إلى إيران أنها حلقة حيوية في سلسلة كانت تضعها الولايات المتحدة «لاحتواء» الاتحاد السوفييتي، وقد قال دالس في برقية وجهها إلى القائم بأعمال وزير الخارجية البريطاني في شهر أيلول (سبتمبر): «أظن أننا إذا تمكنا بواسطة التنسيق أن نتحرك بسرعة وفعالية في إيران فإننا سنغلق أخطر فجوة في الخط الممتد من أوروبا إلى جنوب آسيا». في شهر شباط (فبراير) ١٩٥٥ أصبحت إيران عضواً في حلف بغداد الذي أقامته الولايات المتحدة وهدفه، حسب كلام دالس «خلق دائرة صلبة مقاومة ضد الاتحاد السوفييتي» (٣٢).

بعد مرور عام على الانقلاب، وقعت الحكومة الإيرانية عقداً مع كورسونتيوم دولي من شركات النفط. لقد فقدت بريطانيا، بوجود شركاء إيران الجدد الحقوق الحصرية التي كانت تتمتع بها سابقاً، إذ انخفضت حصتها الآن إلى ٤٠٪. وذهبت نسبة ٤٠٪ أخرى الآن إلى شركات نفط أمريكية، بينما كانت البقية حصصاً لبلدان أخرى. بيد أن بريطانيا حصلت على تعويض سخي للغاية لقاء ممتلكاتها السابقة (٣٣).

في العام ١٩٥٨ ترك كرميت روزفلت وكالة المخابرات المركزية وباشر العمل مع شركة نفط أمريكية هي شركة غلف أويل (Gulf Oil Co) وهي إحدى الشركات الأمريكية الأعضاء في الكونسورتيوم، ومن موقعه هذا كان روزفلت مديراً لعلاقات هذه الشركة مع الحكومة الأمريكية والحكومات الأجنبية وأتيحت له فرصة التعامل مع الشاه. وفي العام ١٩٦٠ عينته شركة غلف نائباً لرئيسها. وتبعاً لذلك شكل روزفلت شركة استشارية هي شركة (داونز أند روزفلت Downs and Roosevelt) التي قيل إنها تلقت بين عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٠، ١١٦,٠٠٠ دولار سنوياً علاوة على النفقات لقاء الجهود التي بذلتها باسم الحكومة الإيرانية. إن زبوناً آخر، هو شركة نورثروب كوربوريشن Northrop Corporation وهي شركة مركزها في لوس أنجلس

وتعمل في مجال الطيران الفضائي وقد دفعت هذه الشركة إلى روزفلت مبلغ ٧٥,٠٠٠ دولار سنوياً لكي يساعد في ترويج مبيعاتها في إيران والمملكة العربية السعودية وبلدان أخرى[٣٤] (راجع الفصل الخاص بالشرق الأوسط للاطلاع على علاقة وكالة المخابرات المركزية ممثلة بروزفلت مع الملك سعود ملك المملكة العربية السعودية).

ثمة عضو أمريكي آخر في الكونسورتيوم الجديد شركة (ستاندرد أويل كومباني Standard oil Co.) من ولاية نيوجرسي (حالياً أصبح اسمها شركة إيكسن Exxon) وهي شركة زبونة لمؤسسة (سوليفن أند كروموبل Sullivan and Cromwell) وهذه المؤسسة هي مؤسسة حقوقية كان جون فوستر دالس كبير أعضائها لمدة طويلة، وكان الن Allen، شقيق جون فوستر ومدير وكالة المخابرات المركزية هو بدوره عضواً في هذه المؤسسة. لقد ذكر الصحفي جاك أندرسون بعد ذلك بسنوات أن عائلة روكفلر التي تسيطر على شركة ستاندرد أويل وعلى بنك تشيز مإنهاتن (Chase Manhattan) قد ساعدت «في ترتيب الانقلاب الذي دبرته وكالة المخابرات المركزية للإطاحة بمصدق». وقد أورد أندرسون عدداً من الطرق التي عبر بواسطتها الشاه عن امتنإنه لعائلة روكفلر، بما في ذلك وضع أرصدة كبيرة من ثروته الشخصية في مصرف تشيز مإنهاتن، كما أن مشروعاً للتنمية السكنية نُفذ في إيران من قبل إحدى الشركات التي تملكها عائلة روكفلر [٣٦].

الرواية المألوفة عن أحداث إيران في عام ١٩٥٣ هي أنه - بغض النظر عن أي شيء آخر يمكن أن يقوله المرء تأييداً للعملية أو ضدها - فإن الولايات المتحدة أنقذت إيران من حكم سوفييتي/ شيوعي. مع ذلك لم يفعل الاتحاد السوفييتي أي شيء خلال السنتين اللتين حدثت فيهما أعمال التخريب الأمريكية والبريطانية في بلد مجاور له، لكي يساند ذلك البلد، فعندما قام الأسطول البريطاني بأكبر عرض لقواته منذ الحرب العالمية الثانية في المياه الإيرانية، لم يقدم السوفييت على أية خطوات عدائية، كذلك عندما فرضت بريطانيا العظمى عقوبات دولية قاسية أوصلت إيران إلى أزمة اقتصادية عميقة وجعلتها سهلة المنال، لم «تقع آبار النفط

رهينة» لدى الخطر البلشفيكي، هذا بالرغم من أن حزب توده بكامله كان في تصرف البلشفيك كعملاء لهم حسب قول روزفلت [٣٧]. بل حتى في مواجهة الانقلاب، وتأثير الأيدي الأجنبية فيه، لم تقدم موسكو على خطوة تهديدية، ولم يطلب مصدق في أية مرحلة مساعدة روسية.

ولكن بعد ذلك بعام قالت جريدة «نيويورك تايمز» في إحدى افتتاحياتها: إن «موسكو.. أحصت صيصإنها قبل أن يفقس البيض ورأت الجريدة أن إيران ستكون «الجمهورية الشعبية الديمقراطية» التالية. في الوقت ذاته حذرت الصحيفة، بأسلوب فيه غطرسة مفاجئة، من أن «البلدان النامية بثرواتها الغنية أمامها الآن درس عن الكلفة الباهظة التي يتحتم على أحد هذه البلدان أن يدفعها لقاء الأخذ بالوطنية المتعصبة» [٣٨].

بعد ذلك بعقد من السنين، قال ألن دالس بأسلوب وقور أن الشيوعية «حققت السيطرة على الجهاز الحكومي» في إيران [٣٩]. وبعد ذلك بعقد آخر من السنين أرادت مجلة (فورتشن Fortune) أن تستشهد بواحد من الأمثلة، فاستعادت القصة قائلة ان مصدق «تآمر مع الحزب الشيوعي الإيراني، حزب توده، للإطاحة بالشاه محمد رضا بهلوي وشبك مع الاتحاد السوفييتي» [٤٠].

ولكن ماذا عن الشعب الإيراني؟ وماذا عاد عليه من نفع «إنقاذه من الشيوعية»؟ بالنسبة للغالبية العظمى من السكان كانت الحياة تحت حكم الشاه صورة قاتمة من الفقر المدقع والإرهاب البوليسي والتعذيب. لقد أعدم الآلاف من الناس باسم محاربة الشيوعية. والانشقاق سحق منذ بداية نظام الحكم الجديد بمساعدة أمريكية. لقد كتب (كينيت لاف) أنه يعتقد أن ضابط وكالة المخابرات المركزية جورج كارول George Carrol الذي كان يعرفه شخصياً، عمل مع الجنرال فرحات دادسيتان Farhat Dadsetan، الحاكم العسكري الجديد لمدينة طهران، فيما يتعلق «بالاستعدادات الرامية لخلق حركة انشقاق خطرة وفعالة تبدأ من منطقة البازار ومن حزب توده في أول أسبوعين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣[٤٢].

إن البوليس السري الإيراني ذا السمعة القبيحة (السافاك Savak) الذي أنشىء تحت إشراف وكالة المخابرات المركزية وإسرائيل، نشر عسسه في سائر أنحاء العالم لمعاقبة المنشقين الإيرانيين. وبحسب قول محلل سابق في وكالة المخابرات المركزية مختص بشؤون إيران، قامت الوكالة بتعليم السافاك أساليب التعذيب [٤٣]. وقد أوجزت منظمة العفو الدولية الوضع في عام ١٩٧٦ بقولها: ان إيران كان فيها «أعلى معدل في العالم لعقوبة الإعدام، ولم يكن فيها نظام صالح للمحاكم المدنية، بل كان لها تاريخ في التعذيب لا يصدقه العقل. وما من بلد في العالم له سجل أسوأ من سجل إيران في حقوق الإنسان» [٤٤].

إذا أضيف إلى ذلك مستوى من الفساد «أذهل أعتق مراقبي اللصوصية في الشرق الأوسط» [٤٥] تصبح مفهومة حاجة الشاه إلى قوات الجيش والشرطة الضخمة التي كانت بتصرفه، والتي كانت تعتمد على برامج مساعدة وتدريب ضخمة بصورة غير عادية من الولايات المتحدة، للسيطرة على الوضع خلال المدة التي كانت له فيها السيطرة على الوضع. لقد قال السناتور (هيوبرت همفري Hubert Humphrey)، بشيء من الدهشة على ما يبدو:

«هل تعلمون ماذا قال قائد الجيش الإيراني لأحد رجالنا؟ لقد قال: إن الجيش في أحسن حال بفضل المساعدة الأمريكية - فهو الآن قادر على التعامل مع السكان المدنيين. الجيش لن يحارب الروس. إنه يخطط لمحاربة الشعب الإيراني» [٤٧].

حيث الفشل قد يكون نصيب القوة، تلجأ وكالة المخابرات المركزية إلى سلاحها الأكثر موثوقية - المال. فهي رغبة منها في ضمان التأييد للشاه، أو على الأقل عدم حدوث انشقاق، بدأت تقدم دفعات من المال إلى زعماء من رجال الدين الإيرانيين، وهؤلاء هم دائماً مجموعة من أصحاب النزوات. بدأت الدفعات تقدم إلى آيات الله والملالي في عام ١٩٥٣ واستمرت بانتظام حتى عام ١٩٧٧ عندما أوقفها فجأة

الرئيس كارتر، «مصدر مطلع في المخابرات قدّر المبالغ التي دفعت بما يصل إلى ٤٠٠ مليون دولار سنوياً، بينما رأى آخرون أن هذا الرقم مبالَغ فيه، وهو بالتأكيد مبالغ فيه. ويعتقد أن حجب الأموال عن رجال الدين كان أحد العناصر التي أدت إلى بداية النهاية لملك الملوك [٤٨].